

المدينة واللغة في المدينة الأفريقية^(*)

جَالَسَ بَيْنَهُ^(**)
ترجمة : طلال السهيل

الوسط والأحياء

(Bourg-L'Evêque) أو «مزرعة الكونت»
(Bourg - Le Comte)، سرعان ما اندمجت، وأوجدت
نوعاً من وحدة المؤسسة، الذي قدّمت المدن القديمة نموذجاً
له .

إن صلابة الحزام العسكري، حققت بشكل عام
تعارضاً حاداً بين المدينة والريف. أما خارج الأسوار، فإن
عالمًا آخر أخذ بالظهور: العالم الذي أصبح الضاحية التي
نسكن، بموقفه الغامض تجاه المدينة، التي بدورها تجتذبه
وتلفظه في آن؛ فهي بحاجة لشغليته ولمنتجاته السوقية
[نسبة إلى سوق]، لكنها مع ذلك، تنتقد عاداته ولغته
البلدية (Faubourienne) .

أما في مدن أفريقيا السوداء، فالامتزاج مختلف جداً .
وتعددية الأحياء تفرض نفسها منذ البداية . ويتكوّن لدى
المراقب انطباع عن مَدِينَةٍ (Urbanisme) بشكل
عنقودي .

في المدن الأوروبية يتجلى التعارض بين الوسط
والضواحي . ففي القرون الوسطى دعت الضرورات
العسكرية، بشكل خاص، السكان إلى التكدّس داخل حزام
من الأسوار . وكان هذا الحزام قد ظهر مرحلياً أنه ضيق
جداً، فامتدت ضواحي صغيرة على امتداد الطرقات، منفصلة
من المدينة . هذه الضواحي كانت بدورها ملحقة بالمدينة،
ومحمية أيضاً بحزام آخر جديد، بينما كانت الأسوار القديمة
قد أصبحت أوتستراوات دائرية . وقد شكلت باريس
نموذجاً تقليدياً لذلك، من خلال خطوط أوتستراواتها الثلاثة
المتتالية والمحاطة بالمقاطع المتحدة المركز .

هذا التكدّس في المدينة هو الذي أدّى إلى وحدتها . وفي
حالات عديدة، كانت المدينة القروسطية مقسّمة بين أسياد
كثُر: كان فيها للمطران مقره، ومقر للحاكم الدينيوي
أيضاً . ولكن كل هذه الـ «مزرعة المطران»

(*) دراسة، نشرت في مجلة DIogene المجلة الفصلية، (طُبعت برعاية المجلس العالمي للفلسفة والعلوم الإنسانية، وبمساعدة الأونيسكو)
- [٩٣ - غالبار ١٩٧٦] .

(**) جاك بينيه: ولد في العام ١٩١٦، دكتور في القانون... من أهم مؤلفاته: المداخل العائلية لمزاري الكاكاو في الكاميرون، ١٩٥٦ - ،
علم النفس الاقتصادي الأفريقي، ١٩٧٠...

وإذا استعدنا وصف المسافرين القدماء، فقد وصف O.Reclus في العام (١٨٨٩) مدينة سيغو (Segou) كالتالي: «نقدّر أن ٣٦٠٠٠ شخص يسكنون هذه المدينة المنشورة جداً، والتي تتكوّن من أربع مدن صغيرة (Villette) تشكّلها قرى على الضفة اليمنى لنهر النيجر: سيغو القديمة (Segou Koro)، سيغو الأكواخ (Segou Bougou)، سيغو الجديدة (Segou Koura)، سيغو سيكورو (Segou Sikoro)، وهذه الأخيرة هي مقر السلطان»^(١٦).

إلا أن هذه الطريقة في الوصف كانت قديمة جداً، ففي القرون الوسطى أعطى البكري الوصف التالي لغانا: «تتكوّن غانا (Ghana) من مدينتين واقعيتين في سهل. المدينة التي يسكنها المسلمون تحتوي على اثني عشر مسجد. وتلك التي يقيم فيها الملك فإنها تقع على بعد ستة أميال من المدينة الأولى ويطلق عليها اسم الغابة (El Ghaba). أما المنطقة التي تفصل بينهما، فإنها مأهولة بالمساكن والعمارات مشادة بالحجارة وخشب الخيزران. مقر الملك يتألف من قصر ومن عدد كبير من الأكواخ ذات السقوف المستديرة، ويحيط بالكل سورٌ شبيه بالخائط. ومدينة الملك تحيطها أكواخ وأجوات وكذلك أحراج كانت تستخدم كمساكن لعراقي الأمة المكلفين بإقامة الشعائر الدينية؛ وفي هذه المنطقة كانوا يقيمون أصنامهم وقبور ملوكهم. وكان هنالك رجال موكلين بحماية هذه الغابات، يمنعون كائناً من كان أن يدخل إليها أو يتحرّى ما يجري فيها. وفي هذه المنطقة أيضاً كان سجن الملك»^(١٧).

وإذا تفحصنا خارطة، فإننا نلاحظ أن برازا فيل (Brazzaville) تتكوّن من حَيَيْنَ أفريقيين، يحيطان جهتي المركز الإداري والتجاري، الذي هو في الوقت نفسه الحي الأوروبي. أمّا في بانغي (Bangui) فأحياء عديدة تنتشر حول مساحة واسعة تتعرض جزئياً للفيضانات، والتي كانت تؤلف فيها مضي المطار القديم. والمركز التجاري (الإداري) حيث يقيم عدد كبير من البيض (Blancs)، يتكّى إلى

رابية عمودية فوق النهر. وعلى امتداد الأوبانغي (L'Oubangui)، في عالية النهر يظهر حي في الضاحية مرموق يجاري تطوّر بيوتات الدراء وكبار الموظفين الفخمة. أما على المنحدر الشرقي للرابية، فقد وجد السكان الأصليون شبه حَيَيْنَ ريفي؛ بينما الحي المعروف بـ كازاشي ونيكاراغا (Basai et Ngaragha) (العسكريين، الموظفين، السجن)، فإنه يتركّز في الجانب الأفضل حيث الرابية تزترّ النهر. وفي الجهة السفلى للنهر المحيطة بالمرفأ، يحدّد الحي الصناعي المركز. ويمتد عبر حافة النهر باتجاه الغرب. وفي الاتجاه نفسه، يشكّل حي كوانغا (Kouanga) مجموعة من البيوت الصغيرة المبنية منذ خمسة عشر عاماً لإيواء الموظفين الأفارقة. ذوي الجذور البرجوازية الصغيرة. إن الحي الذي يدعى «الكيلو ٦» (أو الكيلومتر ٦) والذي يحيط بالجامع وبيت الحزب ويحيط أيضاً بالسوق، يشكّل النظير التام للمركز، ويكمله مبنى فاطما (Fatima) في الجنوب وسيدة أفريقيا في الشرق، بينما سواراب (Boy Rabe) الواقعة في الشمال تقفل الدائرة.

وتقدّم كينشاسا (Kinshasa) أيضاً نموذجاً أفضل في هذا المجال: الفوارق فيها أكثر وضوحاً، وأغلب الأحياء هنا تسمى «مدناً»، الأمر الذي يحدّد خصوصيتها المدنية. الأحياء المركزية فيها مثل (Kalina, Limete, Ngaliema). مفصولة أيضاً عن «المدن القديمة» كـ (Kintambo, Barumbu, Saint-Jean-Kinshasa) و«المدن الجديدة» مثل: (Kalamu, Dendale, Ngiri) يعود تاريخها لعام (١٩٥٥)، ومن ثم فإن «المدن المصمّمة» (Cités Planifiées) مثل (Bandalungwa, Lemba, Matette Ndjili) التي تليها قد أخذت توحدّها مساحة من الملكيات غير الشرعية في مناطق الامتداد في الجنوب كـ (Bumbu, Makala, Ngaba, Selembao) ومناطق أخرى بعيدة عن المركز (Kisenso, Tschangu, Masina, Kingasani Ngaliema). وهناك ملاعب

الخلاسين، بينما الحي الأكثر إفريقية يعدّ ١٥٪ من البيض و٥٪ من الخلاسين^(٢٧). وبالمقابل، ففي البلاد حيث التمييز العنصري هو عقيدة الدولة، فإن فصل المساكن يكون كاملاً.

إن المديّنة بشكلها العنقودي لها جذور عميقة جداً، وترتبط بالتقاليد الأكثر قوماً، كما ترتبط بشكل أو بآخر بالفلسفة القبليّة (Clanique). وفيما يتعلق بهذه الأخيرة فإن صلة الدم تشكّل المجتمع الوحيد الكلي والمعروف. أما أولئك الذين لم يكونوا ذريةً لسلف مشترك، يُعدّون غرباء حتى ولو نطقوا باللغة ذاتها. وحدها صلات المصاهرة والمقايضة والزواج باستطاعتها أن تؤسس قرابة أخرى جديدة: فالجيران الذين ليسوا «اخوتي» هم «أعمامي» وبالتأكيد، فالأفارقة يمتلكون نظرة واسعة حول هذه «الأنساب» والروابط. وكل هذه القرابة الرجحية مأخوذة بعين الاعتبار؛ وفي مجال حق السلالة الأبوية، فإننا نساوق بين أهل الأم، وأهل الزوجة والجدة... غير أن الضوابط سرعان ما تظهر، وكل سلالة تنطوي على نفسها وتنسلخ عن الآخرين بشكل ملفت، لاسيما إذا كانت على قدر من الأهمية لأبأس به في اكتفائها بنفسها. إلى ذلك، وفي بعض الأحيان فالوحدة القروية تجدد نفسها مفصومة العرى. القرية هي الاتحاد (Fédération) للقبائل، وتنقسم إلى أحياء كل واحد منها بُني في إطار سلالة قبلية. ويلاحظ الانقسام أحياناً بشكل عيني، حيث تفصل الأحياء ببضعة مئات من الأمتار. وفي غينيا الوسطى (Moyenne Guinée) مثلاً، أجري استفتاء في محاولة لتوضيح الروابط التي استطاع القرويون عقدها فيما بينهم، فتبيّن أن معظم التكتلات تعود إلى مؤسستين اثنتين: اكتشف أحد الصيادين مكاناً ملائماً وأقام صديقه بالقرب منه. وهكذا أثبتت التعددية القبليّة في القرى. وبالفعل، يُطبّق الأفارقة زواجاً خارجياً (Exogamie) قَبلياً كاملاً: فلكي تستطيع القرية أن تغدو خلية حياتية ويكون الزواج الداخلي (L'intermariage)

عسكرية أو ملاعب للتسليّة (غولف، ملعب مدرّج، حديقة حيوانات) تفصل تلك الأحياء بعضها عن بعض؛ كذلك هناك وديان مستنقعية.

إن هذه المدينة ذات الشكل العنقودي (En grappe) تبرز بشكل خاص في Yaoundé حيث يتمثّل ذلك بوضوح: كل حي مبنّى على رابيته: رابية الحكومة، الصحة، الجامعة والمدارس، رابية البعثة الكاثوليكية بمدارسها ومعاهدها، ومن ثم رابية السفارات حيث يبرز قمته ميدان خيل، وراية الأحياء القديمة، Ewondo (Mvog, Vbi, Mvog ada) وراية الأحياء الأجنبية (القرميد)، وفي البعيد، الجبل الساحر المسمّى Febé، حيث للرئيس قصر صيفي، يستقبل فيه ضيوفه ذوي الشأن.

بإمكاننا القول إن هذه الوضعية للمدينة بشكل أحياء موزّعة قد فرضها الاستعمار من أجل تأمين الفرقة (Séparation)، وحماية البيض (Blancs). إلا أن الأمور تبدو أكثر تعقيداً بشكل عام. ففي أصل المدن المستعمرة، كانت عائلة السيّد (maître) وعائلة الخدم تسكنان تحت سقف واحد. وهذا ما نلاحظه حتى اليوم في سان لويس في السنغال. المنزل يطل على الشارع من خلال منافذ في الطابق السفلي، ويشرف على الطابق الأول عبر نوافذ ضيقة إلى حد ما، وهو يحيط بفناء رئيسي تطل عليه كل الغرف. في الطابق السفلي، توجد المخازن ومساكن الخدم؛ وفي الأول تطل الأجنحة الخاصة أو صالات الاستقبال على شرفة مغلقة. ومع مثل هذه العمارات «الاقطاعية» فإن السكان يختلطون بقوة. وليس من النافل أن نشير إلى أنه في أنغولا الحالية، في لاواندا بالذات، ليس هناك من حي من الأحياء المختلفة، حتى تلك التي تدعى muceque (أي ما يعادل ما نسمّيه مدن الصفائح)، ذي جماهير متجانسة من وجهة نظر إثنية (Ethnique): فالحي الرئيسي التجاري، السكني... الخ. يعدّ ٢٦٪ من السود و١٠٪ من

ممكناً فيها، يجب أن يشغلها عدد كبير من القبائل. إذن، ففصل الأحياء المدنية ذو أصول تقليدية.

إن تاريخ المدن القديمة يؤكد هذا الطابع المتعدد النوى (Polynucléaire) للمدينة. « هناك نص قديم ينسب تأسيس سان (San) في مالي إلى قافلة من البائعين الماندنغ (Mandingues) الكاوتو والسيكينا (Köita et Sékiné) القادمين من الجنوب... وبحسب مصدر آخر، فـ San هذه، كان قد أسسها صياد ماركا (Marka)، والذي كان قد اكتشف بركة سانكيرو (Sankero) المقدسة. أما السكان الأوائل بعد الكاوتو والسيكينا كانوا الترافوي الماركاويين (Les Traoré des Markas) القادمين من الشرق. وتفاهمت القبائل الثلاث المذكورة فيما بينها على تأسيس مجتمع يكون فيه الرئيس - مدى الحياة مختاراً من كل قبيلة بالتتابع...⁽¹⁾ »

وقد أشار المؤلف في وصفه إلى « أن مجموعة الأحياء القديمة الأربعة، كانت من قبل محاطة بالأسوار المحصنة، وتتصل بالخارج بواسطة باب واحد لجهة الغرب. وداخل هذا الحزام الحصين، كانت الأحياء الأربعة مفصولة، واحدها عن الآخر بأسوار أقل كثافة وأقل ارتفاعاً، وبساحة مركزية بُني في وسطها المسجد حيث تقام صلاة الجمعة. وكان كل موضع يشرف على ساحة المسجد من خلال رواق كبير حيث تعالج شؤون الحي. في الداخل، كان سكان الحي يتوزعون كالتالي: في مدخل البهو كان يقام مقر (Case) زعيم الحي، ومقر نسائه، ومن ثم أفراد العائلة الآخرين... ». وهنا إذن، فالأحياء مفصولة، ليس بواسطة مساحة فارغة إنما بواسطة جدار.

إن هذا التصور للمدينة ناشئ على الأرجح من المعتقدات القديمة التي من الأهمية بمكان سرها. فهل يكون للأحياء الأربعة ثمة علاقة مع الأبعاد الأربعة للمكان؟... على شاطئ بنين (Bénin)، وفي منطقة نائية جداً، لكنها تنتسب أيضاً إلى ثقافة حيث الحضارة المدنية

معطى قديم، هناك بقاثة يصفون ومن داخل المدن أحياء شديدة الخصوصية والتمايز، ترتسم حدودها جليّة في أرض الواقع. ففي بلاد يوروبا (Yoruba)، « على امتداد الشوارع، تتجمع المنازل (Blocs)، مشكّلة وحدات سكنية في أحياء⁽²⁾ ». ويكون مدخلها مطلاً على الشارع، أمّا المخرج فيطل إمّا على أرض بور أو على منازل لأحياء أخرى. المخرج قد يكون محدّداً أيضاً بممرات ضيقة تشكّل تحوفاً بين الأحياء⁽³⁾.

وقد أشار المؤلف نفسه إلى أن الأراضي البور داخل المدينة تلعب دوراً شاذاً: « ففي كثير من المدن، تُجرى بعض المذابح الإلهية (العامة) تقليدياً في آجام على حدود المناطق غير المبنية. وهذه المناطق الحرجية، تستخدم - عدا عن استعمالها لأهداف دفاعية ولأمور الزراعة - الإغاثة في حالات الحصار - ملاذاً للنشاطات الدينية نصف المتخفية (الأعياب الأتقنة والرومب... mascarades, rhombes). وهناك الكثير من المدن لها مساحة دغلية وعرة، تستخدم كمظهر أخلاقي وروحي، حيث تُلقى جثث السحرة، والمجرمين بعد إعدامهم، والمدينين غير المحرّرين وأجساد أولئك الذين ماتوا مشوّهين، تُلقى دون أن تدفن. إن إحساساً بالهبة ينضج من هذه الأمكنة ». من خلال هذا الوصف، يظهر بوضوح أن المدن تحتاج لأن تحتفظ في أحشائها طبيعة متوحشة، بمواجهة المناطق المؤنسة، ولهذا كانت هذه الفراغات الحدودية.

إن المثال الذي تقدّمه كامبالا⁽⁴⁾ (Kampala) يُعطي تفسيراً آخر لتعددية الأحياء وللفضل بينها. ففي أوغندا، كان كلُّ ملك يشغل تلة، ويبنى فيها قصرًا، ومن ثم كان خليفته يتمركز في تلة أخرى... إلى ذلك، نفهم جيداً كيف أنه مع مجيء المبشرين، ومن ثم ممثلي الحكومة البريطانية، كان الملك يخصص لهم تلة، لم يكن لها حدود بشكل واضح.

أمّا في الوقت الراهن، فالمدينة تتألف أيضاً من سلسلة

في المدن القديمة، يؤكد فقدان الأراضي البور هذه الفرضية: المناطق الأكثر ملاءمة للبناء شُغلت أولاً، أما المناطق الأقل ملاءمة فقد رُتبت بدورها في ما بعد. ولهذا فإن مدينة ليبرفيل (Liberville)، في بعض من أحيائها، تُعطي بشكل خاص انطباعاً بأنها ليست مقصورة (Ségrégation) على عرق أو جماعة. وتحديد أكثر، فإن مختلف الطبقات الاجتماعية يختلط فيها، إلا أن مجاورة الطريق العام المعبّد والمزوّد بالماء والكهرباء، هي التي تخلق الفوارق بين الفقراء والأغنياء، بين السود والبيض.

الشوارع أقيمت في أعالي الجبال، والمساكن المحاذية للطرق مشادة بعناية وبشكل مريح، وفق النماذج الأوروبية. ومؤجرة كذلك الأوروبيين بأسعار مقبولة. وهناك، على بعد قليل من الشارع، في منتصف المنحدر، تقوم منازل أكثر تواضعاً أو أكواخ خشبية يسكنها أفارقة لديهم بعض المداخل. بينا أراضي الوديان مأهولة ببيوت - صناديق تقليدية من اللّبن (Torchis) (تراب وخشب) أو من أخشاب لماعة. هناك تعيش أقوام من ذوي الدخل المتواضع، على بعد بضع مئات من الأمتار من الشوارع المضاعة جيداً والتي تترادها الشخصيات الكبيرة.

وفي مدن أخرى، حيث العناية بالصحة والمدينة سائدتان، فالفصل بين الأحياء يُلاحظ جلياً من خلال مجاري أو سواقٍ أو من خلال أراضٍ مستنقضية. إلا أن مناطق الوديان الجوفية لم تكتسح بعد من قبل الإنسان؛ فالخدمات البلدية جعلتها ملائمة للصحة، وإذا غُرس فيها شجر الايكالبتوس (Eucalyptus) نستطيع تخفيض رطوبة مستنقع مثلاً. وفي إنشائنا سداً في ساقية نحول مستنقعاً إلى بركة يكفي تسميكاها [من سمك] حتى تمتنع بركات البعوض من التكاثر فيه.

إن الوصف الذي أعطاه بوتر (Porter) لمدينة فريتاون يُظهر التطور التاريخي للأحياء المرتبط بالسحر: «في فريتاون، في القرن التاسع عشر، كان الحي المميّز هو

تلال، حيث تكون كل واحدة منها وقفاً على ساكن (Habitant) مميّز: مينغو (Mengo) هي مقر للملك ولحاشيته. ريباغا (Rubaga) خصّصت كمقر للآباء البيض. وفيها أيضاً مركز وزارة العدل. وتلة نزامبيا (Nsambya) - المائلة لتلة ريباغا بالنسبة لـ منغو - أعطيت لأبرشية آباء الميل هيل (Mill Hill). في الجانب الشمالي لهذه التلة، خصّصت مساحة تجمع موظفي سكة الحديد ورجال الشرطة.

وبالمقابل، فإن كيبولي (Kibuli) مأهولة بالمسلمين؛ وفي عام (١٩٠٠) كان أحد أشقاء الملك ميتازا (Mutesa) قد اعتنق الاسلام وأقام فيها. واستمرت سلالته من بعده تعيش هناك: وهكذا أصبحت حياً إسلامياً. إلى ذلك أرسلت البعثة الانكليكانية إلى ناميرامب (Namirembe). وقد أقام فيها رئيس الوزراء. ومع مجيء القوات العسكرية البريطانية، فقد خصّص لها الملك أولد كامبالا (Old Kampala) تلك التي بُني فيها الحصن القديم ليجار (Lugard). وهناك تلة أخرى، هي ناكازورو (Nakasoro) كانت مقراً للحكومة بالإضافة للإدارات وكبريات بيوت التجارة. وفي أسفل التلة أقيم السوق الهندي. أما على أكمة كولولو (Kololo) فقد شيدت مساكن الموظفين. وأخيراً هناك تلة أخرى أيضاً أقيمت عليها جامعة ماكيرييري (Makerere)، بينما تلقت ميلاجو (Mulago) بناء المستشفى.

إننا نستشف، من خلال هذا التعداد المملّ نوعاً ما، حقائق الفصل بين الأحياء. فعلى موجات متتابعة أقام ذوو المرتبات العالية في أماكن رحيبة، بينما تجهد الفئات الدنيا نفسها كي تجد مكاناً بالقرب من «الدولة»، التي يعتقدون أنها القادرة على حمايتهم أكثر من غيرها. وكان التفريق قد حصل بشكل سريع ودون كبير جهد في رسم حدود واضحة، بينما خلفيات الأراضي المرثية قليلاً لم تكن بالحسبان، وهي تشكّل فصلاً بين الأحياء.

ذلك الذي يقع بالقرب من مركز محطة انزال الفقراء السود الذين قدموا في العام (١٧٨٧)، والمنشأة الأولى للظلام الجديدة (Nova Scotia) (السود الموالون لحرب الاستقلال في الولايات المتحدة) التابعة للمستعمر المحلي.

في العام (١٨٠٠)، أنزل السود الآبقين (العبيد الهاربين من الأنثيل) في الغرب (بلدة العبيد Marroontown). وأكثر من ذلك، ففي الغرب أيضاً، أقيمت منطقة لـ كرووس (Krous) في العام (١٨١٦)، حياً وضع المستوى. فالعبيد المحررون بواسطة أعمال القرصنة المشهورة ضد تجارة الرقيق، كانوا داخل المنطقة. وفي بداية القرن العشرين، ومن أجل مكافحة الملازيا، تجمع البيض في الموقع العلوي من الغرب حيث تسهل الوقاية. ثم إن الفوارق الاجتماعية تجاوز الفوارق المادية، وافترق المولودون البيض لعدم استطاعتهم استئجار بيوت للأوروبيين. وهكذا أصبح السكن في الغرب، خارج الحدود البلدية متمتعاً...^(٧)

إن وسط المدينة هو بشكل عام حي سكني للفئة المسورة من السكان. وهو حي أوروبي الطراز. إلا أنه، كما في سائر البلدان، يكون الوسط مكتظاً. ولكثرة ما يحويه من مكاتب ومحلات، يجعل حركة المرور في لحظاتها القصوى شديدة الصعوبة. عماراته بشكل عام حديثة إلى حد ما، حتى تكون الأجهزة والصيانة لها موقرة جيداً. ففي المدن الأوروبية، نجد أن كثيراً من الأحياء القديمة لا تتلاءم مع مقتضيات العصر، ومتروكة لفئة من السكان فقيرة تكفي بمساكن رديئة.

إن هذا الانحطاط في الأحياء المركزية لم يلاحظ باللموس في أفريقيا بعد.

وإزاء النشاط الحيوي لوسط المدينة، والتكدس داخل الشقق، بدأ يتميز، مع ذلك، عنصر أساسي، هو أن بضعة أعداد من المواطنين اختارت الإقامة في أحياء خارجية ولا تأتي المدينة إلا في أوقات العمل.

وإذا تجاوزنا الأحياء المحيطة بالمدينة التي اكتظت بالأفارقة. نلاحظ ولادة ضواحي أنيقة في داکار (Dakar)، في حي فان (Fann) في ياؤنديه (Yaoundé)، وبالقرب من باستوس (Bastos)، في الكوكودي، وفي الناحية الشمالية الشرقية لأبيدجان. وغالباً ما يغدو المسكن الفخم في الضاحية مرتعاً لقضاء عطلة الأسبوع، حيث نؤمه للتلذذ بمياه الشاطئ. بالقرب من أبيدجان، وعلى امتداد أكثر من عشرة كيلومترات لشارع البسام (Bassam)، كان البيض قد استأجروا موقع مزارع جوز الهند على حافة الشاطئ، وبنوا عليه اباتامات (apatams) (غايه مؤقتة من الحصر القصية والأخشاب)، حقاً إنها فيلات صغيرة. وبمحاذاة داکار، تحيط الفيلات بشرم هان (La baie de Hann)؛ وتكتظ شواطئ أماديس ونكور ويولف (Almadis, Ngor, Yolf) بالناس في عطلة الأسبوع. في ليرفيل، يلعب الدور نفسه رأس استرياس (Estérias) عند مصب النهر، وتقريباً في كل مكان نلاحظ خروج الناس في نهاية الأسبوع يتميز بطابع المدنية الأوروبية المعاصرة. وكان الأفارقة يلاحظون جيداً هذا الميل للهدوء وللوحدة. فبحسب أوغو (Ogo) يكون الفرد المقولب (le Stéréotype Oyinbo ori oke للأوروبيين) (الانسان الأبيض وحده، على المضبة)^(٨).

إن التعارض بين «الأحياء» و«الوسط» لا يُعتبر هو نفسه في أوروبا كما في أفريقيا. ففي الواقع، نجد أن الوسط يلعب دوراً فريداً في الحياة الاقتصادية والسياسية للدولة إلا أن معظم المواطنين لا يستشعرون بهذا الدور. فإنسان بانغي أو أبيدجان لا يجد نفسه معنياً حقاً بهذا الذي يجري في الوسط. وهذا الأخير بالنسبة له هو المكان الذي يصرف فيه أعماله الخاصة، أكان شارع «الكيلو ٦» أو تريشثيل.

نستطيع إذن، أن نتساءل إذا لم يكن الكثير من المدن الأفريقية ثنائياً، مؤلفاً من حاضرتين متجاورتين. إحداها

مهم في « الرفاهية الفكرية ». والمدينة وساكنوها وجدوا ليس بدافع ذاتي، بل لأن حضور الشهود الأجانب هو الذي كترس وجودهم. كذلك، فالسكان يعززون علو شأن المدينة إلى تجهيزات لا يحققون منها أية فائدة، حتى ولو بشكل غير مباشر. إلا أن تلك التجهيزات، في إقامتها روابط الاتصال مع العالم الخارجي، تجعلهم مطمئنين بشكل ما.

وفي صورة المدينة، تكون الاعتبارات الاستطاقية، على قدر كبير من الأهمية.

فالجبال هو شغل المواطنين الشاغل من أجل مدينتهم. يتساءل الأوروبيون أحياناً عن فخامة بعض الأبنية الرسمية. ولقد أجاب منذ القديم عالم بالنفس الأفريقية هو الرئيس هوفوايه - بواني: أجاب بالقول: إن الشعوب كانت بحاجة إلى هذه الفخامة. فالمواطن، محروماً من كل ما هو كمالي في حياته الخاصة، يحتاج إلى مبانٍ عامة، وجادات، وأيضاً إلى أماكن مهيبة.

هذه الترتيبات الفخمة هي، في الوقت نفسه، واجهات عرض إعلانية. وبهذا المعنى جاء في خطاب ألقى في افتتاح يوم المدينة في أبيدجان يستحق ذكره هنا: « أن هناك منشآت تُعتبر بنظر الكثيرين كأنها سحر خالص، هي في الحقيقة محرك النمو في عاصمتنا. وقصر الرئاسة أحياناً المثل القديم الذي يقول: ما يُنسب للمرء يصدر عن سمعته.

وجسر هوفوايه - بواني (Houphouët-Boigny) العرض، الذي دُشن في العام (١٩٥٧)، ما كان يستطيع حل أزمة السير لعشر سنوات لاحقة ووجب أن يتضاعف. كذلك، فندق إيفسوار (Ivoire)، الذي افتتح في العام (١٩٦٣) بمئتي غرفة، فقد تطلب الأمر بعد ست سنوات لاحقة، أن ترتفع طاقة استيعابه إلى خمسمائة غرفة. وما يكاد مطار بور - بوييه (Port-Bouët) الدولي، يُنجز حتى نواجه طاقته على الاستيعاب...^(١٠).

العناصر الجمالية، التي تسترعي انتباه أطفال بانغي في

تعيش على إيقاع العالم الحديث، هي حاضرة البيض والأفارقة الذين، بثقافتهم وكفاءتهم وأذواقهم، ينضمون إلى الحياة العصرية. والأخرى هي المدينة الأفريقية، حيث حاجياتها وتقنياتها والاهتمامات تبقى تقليدية. وفي الحقيقة، جميع المدنيين [سكان المدن] يُقدفون، بوعي أو بدون وعي، في مغامرة الحداثة. هناك عدة أحياء لها وسط تابع، ولكن الذي يميزها هو دورها السكني. ففي دراسة أجريت في بانغي عام (١٩٧١) من خلال تلامذة المدارس، أظهرت بوضوح التلوين العاطفي الذي يحيط الحي. فجميع الأولاد يعرفون جيداً عموم المدينة، وخصوصاً الوسط. إنهم يعرفون فيها كل « المحلات العصرية، المرتينة بالواجهات الزجاجية حيث يمكننا البقاء خارج المحل ومشاهدة السلع على أنواعها في الداخل ».

ويستشهدون، في هذا الصدد، بالأدلة، كما يحسنون الإشارة بكلمة، على أنهم يعرفون في أية مناسبة نذهب إلى « الاعاشات العائلية » أو إلى « المخازن ». العمارات المميّزة تُعرف مباشرة، وتُستحضر في الذهن نظراً لمرآها الخلاب. فسوق بوكاسا يُضرب المثل فيه أغلب الأحيان، بسبب هندسته المعمارية أكثر منها بسبب دوره التجاري. وكثيراً ما نوه بفندق سافاري (Safari) ذي الثلاث عشرة طبقة. إلى ذلك، فهؤلاء الأولاد واعون وفخوريون بالدور العالمي لمدينتهم. إن مسألة استقبال الأجانب تبدو لهم أمراً لا بدّ منه.

فإذا ما ذكر المطار، فليس لأننا نشهد فيه التقنية الهائلة في الطيران. ولكن لأنه يجذب ويستقبل أجانب؛ ويُعرف R.C.A. ومستوطنيتها بالعالم أجمع... هناك تفسير لفندق سافاري: في أن « ناطحة السحاب هذه، بُنيت من أجل أن ينام أولئك الذين جاءوا من عالم آخر » يظهر جيداً هذا الاهتمام بالضيافة^(١١).

إن رغبة الانفتاح على العالم الخارجي، يمكن أن تبدو بعيدة عن الضروريات المادية لبلد متخلف. إلا أنها عنصر

مدينتهم، يمكن أن تكون مفاجئة؛ فنافورة الماء نادراً ما تُذكر، ومثلها نصب بوغندا التذكاري. وألوان الأبنية قلماً يفظن لها أحد. إلا أن النظافة هي مسألة هامة. إننا نستعجل جاليةً للقوة وللقياس. الزفت «الذي يلمع كما الحديد». الأعمدة المتراسة كجنود في رتل هندي. والأشجار التي تحدّد اتجاه الشوارع بدقة، ترسم إيقاعاً، تنظيماً للمنظر المدني.

إن هذه الإشارات بالقانونية، لا تستطيع التقليل من مفاجأة أولاء الذين يلاحظون، كم تبدو الرسوم الهندسية بصرامتها مزعجةً وجافةً بالنسبة للأفارقة، هل من الممكن أن تكون هذه الصرامة نفسها هي المستحسنة هنا. إنها تُفصح على كونها في مدينة، في عالم جديد. ليس هو عالم الشعور والحدس، ولكنه عالم العقل والعصرنة.

وإذا كانت انعكاسات وسط المدينة مرتبطة بالثقافة العصرية، فالانعكاسات المعطاة للحي لها صبغة عاطفية مختلفة كلياً. فالحي يبدو، من خلال الواجبات المترتبة عليه، بديلاً للقرية، مع ما تحمله هذه الأخيرة من تقليدي وعائلي وعودة إلى أصول «أمومية». ثم إن استحضار الحيوانات الداجنة، والأشجار المثمرة، والزرع، يسير في هذا الاتجاه. وعندما يجمع الأطفال الرسوم إلى فروضهم، تنكشف حقيقة أن منازل الأحياء ترسم، وكأنها أكواخ مستديرة الشكل. وعملياً، ففي مدينة بانغي تكون المساكن عموماً مربعة أو مستطيلة، ولها سقف من أربع زوايا أو زاويتين. والأكواخ المستديرة التقليدية نادرة جداً فيها. وفيما يتعلق بالحي الذي يسكن، فالطفل البانغيزي لا يرسم كوخاً واقعياً. وإنما يرسم النموذج - المثال للكوخ. تماماً، كالطفل الباريسي، يرسم بيتاً بسقفٍ ومدخنة. في حين أن هذا الشكل قلماً يتكرّر في المدينة. وإذن، فالرسم يكشف الوجه التقليدي والماضوي للقيم المرتبطة بحي السكنى. والارتباط بالحي لا يظهر متصلاً بالعائلة وهذه الأخيرة قلماً دُكرت بصراحة.

في الواقع، هناك كثير من الأطفال يعيشون في المدينة بعيدين عن أسرهم، بالمعنى الضيق للكلمة. إنهم يוכלون في عهدة بعض «الأوصياء»، عم أو ابن عم، كما هي العادة في بريطانيا. وتُفضّل أسرهم رؤيتهم على مقربة من المدارس. لكنّ سكان الحي يُتخيلون بسماة عائلية مثالية: الأطفال يُعجبون بهدوء جيرانهم، وبـ «رفاهيتهم»، التي، في الحقيقة لا تشوبها ضوضاء أو مشاجرة. إن إثارة الحي يرتبط برغبة إيجاد مأوى، أو حماية ضدّ عنف الخارج. كما لم يكن الهدوء بحد ذاته أو السكنية مستحسنين، لأن الأطفال يتحدثون عن نشاط الحي الذي فيه يعيشون. الحي «هادئ» بسبب ندرة حركة الطيران فوقه، ولأن السكان «يمثلون لأمر الحاكم»، وهو إذن ضربٌ من ملاذ في كنف نظام الأبوية، إلى جانب عالم لا مبالٍ، كبير لكنه مرعب.

هل يتشابه موقف الكبار مع هذا الذي للصغار؟ هل للكبار هذا الارتباط العاطفي بما يتعلق بحياتهم السكني؟، إنهم لا يتورعون عن ترك الحي حيث يقطنون، والبحث عن منزل أكثر تلاؤماً مع احتياجاتهم؛ ومعدل الحركة مرتفع جداً في كل الأمكنة. وبالعكس، يمكننا ملاحظة أن كثيرين يهيمون عقود شراء في أحيائهم، في حين كان يمكنهم ذلك بسعر أقل في وسط المدينة. إلا أن هذا الأمر يُفسّر بطرقٍ عدة: المواصلات ليست دائماً سهلة، من جهة، ومن جهة أخرى، تكون شروط البيع (قرض، تقسيط) أحياناً أكثر ملاءمة في محلات الحي، بالرغم من الارتفاع الكبير في مستوى الأسعار. كذلك، هل يتوقّر في الأحياء كلها حد أدنى من التجهيز التجاري.

إن العلاقات الاجتماعية في وسط المدينة، تتجدّد بالضرورات الوظيفية، بمنحة التسكّع في الشارع، وببضعة إجراءات إدارية أو بشرائية مميزة.

ليست الأحياء مراكز إقامة وحسب، إنها تتحرّك كنوىٍ مستقلة مع أسواقها، مع بائعي المفرّق فيها، أو حُرّفيها في الحوانيت، ومع أرصفتها «الميدعية» (de

(Tabliers) ... ويظهر تطوّر المدينة، ليس في تعزيز الخصائص التجارية في المركز، وإنما بتكوين مراكز ثانوية. ففي أبيدجان، يحظى كل من الحَيِّين الأكثر قَدَمًا تريشفيّل وأدجاميه بمركز مالي فعّال، حيث تُعرض كل أنواع التجارة والحرف. كما تبرز مراكز أخرى، أحدها في الد-٢٢٠ «مسكن»، والآخر على مفترق طرق كوماسي ... وتبقى المدن الأفريقية المتعددة المراكز (Plycentrisme) علامة فارقة.

في المدينة الأوروبية، كما نذكر أحياناً، إنه المركز الذي يلعب دور المطهر. يجذب المدينون الجدد إليه عبر صيت المدينة، ويُقيمون فيه الفترة الضرورية للتأقلم مع الحياة المدنية. وبعدها ينتشرون في الأحياء - الأطراف أو في الضاحية. وعلى هذه الأسس، يسير عدد من المدن الأفريقية بشكل مؤكد. ويظهر واضحاً في كينشاسا مثلاً، أن نسبة كبيرة من السكان «النافذين» المبعدين، كانت قامت بتدريبات إقامة في الأحياء الأكثر مركزية، قبل أن تتوفر لديها الامكانيات في أن تستقر في بيت صغير ومتواضع. وفي داكار أو في أبيدجان نستطيع أن نوضح بدون شك محيطين متشابهين. الأحياء الحديثة ولكن البعيدة، في كل من بأوباب (Baobab)، والحريّة، في داكار، في الد-٢٢٠، والكوماسي في أبيدجان، هذه الأحياء تستوعب سكاناً هم دون شك أكثر ارتياحاً من أحياء الأدجاميه (Adjamé) أو التريشفيّل، ومن حقل السباق أو الميدينا (Médina). إن تعددية الأحياء، تنجلى إذن علامة ثابتة في المدن الأفريقية، ومساائل شيخوخة الوسط، تُطرح، في هذا المجال ذاته، بطريقة مختلفة.

لغة المدينة

مثل المدينة، كمثل أي عمل انساني، التعبير عن صانعيه، من يتكلم عبرها؟. بأية وسيلة تُفصح الأفكار والمشاريع عن ذواتها؟ ما هي، أخيراً، الأشياء التي تنقلها

المدينة لنا عن نفسها؟ تلك هي الأسئلة الثلاثة التي يمكن أن تُطرح.

وأحياناً، تتحدّد ميثافيزيقا بكاملها، من خلال مخطط المدينة. وكان للأهمية المعطاة للمسكن، أن وجد هذا المفهوم للمدينة. فمن خلاله أعطى أ. ماسون ديستوربيه (A. Masson Destourbet) نموذجاً رائعاً^(١١) فيما يختص بمدن كوتوكو (Kotoko) على ضفاف اللوغون (Logone) إذ يقول: «فأمر الشمال ماكاري (Makari) هو سليل أحد الأبطال الغزاة الذي بنى سلطته على قتل الأفعى الأسطورية الذي يمثل هذه السلطة. وهذا القربان سمع بإعداد المساحة المدنية انطلاقاً من المركز. فيما ربط أمير الجنوب لوغون برني (Logone Birni) نَسَبه بالحكيم - الذي منذ الأزل - شاد مقره على المساحة المميزة، الفاصلة بين أحياء الشمال وأحياء الجنوب، والتي تخضع لمسطح طولي».

في المدينة الأوروبية، تتوضّع الوحدة العمرانية الكاملة لأنها تمكنت من ترك أثر لها عبر العصور الغنية والفقيرة. ولم يكن الأمر ذاته في أفريقيا. «فالسُلطات»، لاسيما الشبيهة منها، أنشأت ونظمت المدينة وفق حاجاتها وطموحاتها. حين نحدّد أبيدجان يمكننا الكشف عن عدد من «الانجازات المدنية». فوجود قصر رئاسي، تستطيع العامة من الناس زيارته، يُعتبر بنسبة أولياً في إظهار السلطة السماوية للرئيس الدولة. والمجمع الوزاري بناء محترم، يحيط به فناء مستطيل، يدلّ على جهد في التنسيق والترتيب. كذلك لم يكن صدفة أن يكون «صندوق ضمان الكاكاو»، الذي يؤمّن كل أنواع الخدمات والمصالح الزراعية، هو المبنى الأكثر ارتفاعاً في أبيدجان. أمّا بالنسبة لمبنى المالية، فيتكوّن من بناء متشعب، جميل وحافل بكل التجهيزات.

وقد وضع الفنيون (les Technocrates) والمعماريون والمدينيون، جزءاً من تصوّراتهم في عملهم. ولم يكونوا في

كل مرة أحراراً، يتصرفون كما يريدون نظراً لارتباطهم بالبرامج المفروضة عليهم. وفيما يتعلق بالمواطنين، وحدهم معتدلو الثراء الذين يبنون أبنية متينة، استطاعوا أن يتركوا أثراً. وكثيرون من البيض، سواء كانوا منفردين أم من أصحاب المشاريع، لعبوا دوراً بارزاً في تطوّر المدينة. بينما يمر السود، الكتلة الضخمة، دون أن يخلّفوا أثراً يُذكر: فالمدينة ليست مرهونة بتعاسة أكواخ الخشب والكرتون المزقّة التي تؤلف مدن التنك (Bidonvilles) في حين أنه، إذا كان عصر هذه الجماعة قد توارى مع المواد الخام التي استخدمتها، فلن يعد لها (للجماعة) أدنى دور في السمة المدنية.

وهكذا، تحدّدت المدينة بادیء ذي بدء بالتخطيط، وبمباشرة التنفيذ. وهي تتكلم لغة المخطط والحجم، مضافاً إليها لغة المساحات الفارغة والمساحات المشغولة وكتل البناء والمواقع، والجادات أو الحدائق، والأرصعة التجارية، ومناطق النفوذ الصناعية. كما لم يكن المكان جامداً، فقد أحيته حركات السير التي تتغيّر، عكسياً تبعاً لفترات النهار. وتُظهر الجسور، والردميات والحفر، قدرة الإنسان الذي يفرض ويحدّد سبل حياته. على امتداد هذه الدائرة، ترسم وتيرة تسمح بقراءة اضطراب العالم الحديث: الشارع والمنعطف، الساحة والأروقة أو الأسواق حيث تأسّس العامة متكذّسة في مجموعات صغيرة.

كل ما نستطيع تسميته «بالتنوع المدني» يؤلف عناصر معبرة عن معانٍ لهذه الدلالة: الأشجار التي تسجّ الشوارع وتظلل المتسكّعين، الجداول التي توزّع المياه، المصابيح، والأرصعة التي تتسع للمشاة. المقاعد، وبسطات البضائع. وواجهات العرض. ثم إن غياب بعض العناصر هو أيضاً ذو مغزى بالنسبة للذين ألفوا مدن الغرب: الإعلانات قليلة نوعاً ما، وكذلك فالساعات أو الأبراج نادرة.

ينبغي التمعّن قليلاً، ويجب ألاّ يُحدّد المنظر المدني في تصميم مجرّد. فالمدينة هي أيضاً تمثال، مع أنه ليس من

السهولة دائماً عقل المدينة بهذا المظهر. العمارات هي، إلى هذا الحد أو ذاك، شاهقة، وإلى هذا الحد أو ذاك فسيحة وكثيفة. وهي معدنية وعمودية في وسطها وتنبسّط عرّضياً. الأشجار والحدائق تسترّ فيلات الأحياء الغنية والأكواخ التقليدية. الأحياء الفقيرة وأكواخ التنك قليلة الاخضرار وتنشر سقوفها المتباعدة. ويُستعمل اللون علامة في المباني الصغيرة؛ إذ تشير كثافته وتنوّعه إلى الرغبة في التمايز. إلّا أن الأبنية الكبيرة تبقى رمادية اللون أو بيضاء. وكذلك فالطلاء بالفيسفاس نادر جداً. إلى ذلك تشكل الضوضاء سمفونية خاصة بكل حي. فهناك ضجيج سكة الحديد المخنوق، ونداء صفارات البواخر، زمامير ومحركات، وكذلك هدير الشاحنات الكبيرة. في الأحياء الأفريقية بشكل خاص، يبث الراديو الألحان التقليدية، وأحياناً الألحان الأفرو - كوبية أو الزائيرية. وضوضاء العامة في الأسواق تشهد على نفوذ المدينة، غير أن صباح ديك حاداً أو نغاء خروف يُذكر بأن أفريقيا الرفيعة هي حاضرة لتوها هنا. إلى ذلك، تشكّل الروائح عنصراً في اللوحة. رائحة المحروقات، دون شك، كما في كل مدينة حديثة. ولكن هناك أيضاً رائحة زيت الفستق أو النخيل، تبعاً للصناعة المحلية. ورائحة النخيل الكرني أو الكاكاو. وروائح سمن القلي للأطعمة الجاهزة والمباعة في الشارع وروائح السمك المقدّد أو المجفّف القوية، حتى عفونة المجاريير المسدودة بفضلات الأسواق، ورائحة دخان الحطب المنبعثة من المطابخ البسيطة في أوقات الطعام. إن مزج هذه العناصر جميعاً، يُشكّل وصفاً دقيقاً للمدينة، وموضّحاً في داخلها. ويسمح للمراقب باكتشاف مسائل على جانب من الخطورة: ألا يدلّ دُخان الحطب على خطر يهدّد بإزالة الغابة حول هكذا تجمع للمنازل؟ ورائحة المجاريير! ألا تدلّ على الاستهلاك الضئيل للمياه المتعلّق بمستوى الحياة الدوني؟...

إن قراءة مبسّطة لخارطة من الجو، تتيح لنا معرفة التناقض بين المساحة، كما هي مستخدمة في الأحياء الحديثة

أبداً نحو الشرق أو نحو الغرب، وجهة الرياح السائدة، خوفاً من أن يدخل البؤس والجثيات الشريرة، المنزل. ويُستنتج من ذلك فئتان مميزتان من الشوارع: تلك المتجهة من الشمال نحو الجنوب تنساب، ضيقة، مع أنفاق تهوية، بين جدران صماء حيث يسبب سوء التخطيط انعطافات كثيرة. وأي تعديل يُستخدم أحياناً لفتحة في مدخل، هو واجهة للشمال أو للجنوب. وإحدى الحيل تقوم كذلك على توفير - باتصال مباشر مع طريق الهاجرة - رواق إضافي تفتح عليه، جانبياً، بوابة الدخول الحقيقية للمنزل^(١١).

إن الاختلاف في الرؤية المكانية بين المهندسين المدينيين أو المعماريين، بتشكيل غربي، وبين المستفيدين الأفارقة، يظهر بوضوح إذا لاحظنا الشوارع. فهناك بائعون صغار يعرضون بضائعهم على طاولة، وفي الليل ينقلونها معهم أو يستودعونها في منزل مجاور، تاركين طاولاتهم في مكانها. حراس الليل يقيمون، أمام البناء الذي يحرسونه. مأوى صغيراً ينامون فيه. كل فئات الباعة، بسرعة، يشغلون الفراغات، وعلى طريقة التور الرخيصة.

وفي الأسواق المسقوفة، يكون التعارض أكثر وضوحاً لأنه يتعلق بإقامة ثابتة. أما في داخل الكتل المعدة من قبل المعماريين، فقد شغل التجار الأفارقة كوى صغيرة: منصات صغيرة وسواتر تستخدم لعرض البضاعة، وحجيرات مسيجة بإحكام، تسمح بإبداع كل البضائع في مأمن عند المساء. إلى ذلك، فتعارض الأبعاد والأجهزة والأشكال هو أيضاً مثير. تتعارض ليونة الخشب وعدم الاتساق النباتي للأعمدة، السيئة الصنع أحياناً، مع صلابة الباطون المعدنية، ودقة الخطوط المستقيمة.

وإذا ما استرعت المساحة المستعملة الانتباه فيما يخص المسكن، فإن إدراك الحيز، بالمعنى الأكثر ميتافيزيقية للكلمة، هام جداً. حين يكون الأمر متعلقاً بالمدينة. وللشعوب الأفريقية مفاهيم حول المكان (والزمان)،

(الأوروبية العمل والثقافة) والمساحة، كما هي مستخدمة في الأحياء ذات الثقافة الأفريقية. فالفارق صارخ في مستوى الأبنية، والشوارع والساحات. إذ يظهر مخطط الأكواخ التنكية كنسيج حي، تتشابك الخلايا فيه الواحدة بالأخرى، وتنشأ الطرقات فيه وفق متطلبات السير الملحة، وليس وفق إرادة موضوعية قلبية. كما يتم نموه شيئاً فشيئاً، أما إذا قرأ فيه شكل هندسي، فسيكون لولياً أكثر منه شكلاً متعامداً. إن وصفاً لقرية سوننكية (Soninké) يظهر بوضوح سباق هذا التطور: «الجامع هو نقطة مركزية. وحول هذا المكان المميز منذ تكوين القرية، أقام السكان منازلهم... تم المداولة كالأقي: المؤسسون يتواجدون إلى جانب الجامع في أول نسق سكني مثالي، ذاك الذي ينسب لولياً، وفي دورته الأخيرة يضم الأحياء المقيمين هناك بشكل دائم. وكذلك يضم سلاطات العبيد والطبقات الشعبية»^(١٢).

ومع ذلك، فلا يغيب عن بالنا ملاحظة أن الأحياء الجديدة في كينشاسا يبدو أنها تبنت مدينة عصرية. مع أنها [الأحياء] أنشأت خارج إطار الطرق الرسمية. هناك أسهم أعطيت - باتفاقات جديدة ومحض عرفية، خارج مداخلات السلطات الإدارية - على أراضٍ، لم تكن شبكة الطرقات قد خططت فيها بعد. إلا أن رؤساء الأحياء حرصوا على أن تكون الأسهم الجديدة امتداداً للقديمة؛ ولا سيما أن تكون الزوائد منها مخصصة لشبكة الطرقات المستقبلية في مدار الشوارع التي خططت سابقاً. إن ضرورات المدينة تمثلت تماماً؛ هذه الأحياء التي لم يكن بمقدورها أن تكون إلا أكواخاً تنكية، تشكلت من وحدات ذات أبعاد معقولة (بحسب المعيار الشرعي)، منظمة بعفوية، من خطر إحداث ظواهر التآكل، بسبب عدم أخذ الحيطة في انحذارات مخطط الطرق^(١٣).

ويصطدم تخطيط تنظيم الطرقات أحياناً بعقبات أخرى: في تمبوكتو (Tombouctou) لا تُدار واجهات المنازل

(Naturel)، غابة أو دَقل. ولا يظهر الإنسان بمظهر المسيطر، أو سيد الطبيعة، بل يظهر أحياناً، كأنه ضيفٌ خجول. والشعائر الزراعية مع تمجيد الأرض يفسران جيداً هذه المواقف^(١٦).

في هكذا إطار ثقافي، نفهم جيداً ما يمكن أن يتطلبه رسم خارطة أو مدينة، من عوامل دينية. فبحسب العرف، كانت مدن السودان، كذلك التي في بينين مسوّرة بالجدران والمداخل فيها كانت معدودة. ولقد وصف بعض المسافرين مدناً بستة مداخل، وأحياناً سبعة، إضافةً إلى مدخل يُستعمل لتهريب المؤن الموكّل به للعبيد. وتذكر الروايات التاريخية أن قرابين بشرية كانت أحياناً تقدّم عند تأسيس المدينة: ففي دجنّه (Djenné)، كانت إحدى الفتيات بوزو (boso) قد وُثِدَتْ - كما قيل - داخل الحائط المسوّر.

إن كل هذه المعتقدات تدلّ على أن المدينة مطبوعة بالقداسة. ولكننا لم نكن نعرف الشيء الكثير عن رمزية استطاعت أن تولد في تصميمها.

هناك، بدهياً، وجود أمكنة باذخة وأخرى سيئة. ولكن، في مدينة يتواجد أناس قادمون من كل حذب وصوب، لا تستطيع أية تقاليد عشائرية ادعاء فرض نفسها. وبمقتضى الأحداث التاريخية، أخذت تنمو معتقدات مدنية على نحوٍ ملائم. ففي أبيدجان، كذا منعطف يُعد خطراً، لأن أطراف البحيرة الشاطئية تُحوّل انتباه سائقي السيارات وتسبّب الكثير من الحوادث.

وتوجّبت فهرسة كل هذه المعتقدات، لرى ما إذا أخذ الفولكلور المدني طريقه إلى الظهور.

في حضارات بينين، دلّت هذه المعتقدات على المدّنية: «في الأسطورة، العالم في الأصل، ارتكز على جزيرة محاطة بالمياه. حيث كان الرؤساء الأوّل ييمون على وجوههم. أقبل أولورون (Olorun) وأمر: «إشو» (Eshu)، اجلس خلفي، وأنت، يا شانغو (Shango) أمامي، وأوغون

مفاهيم يمكن أن تكون لدى كل المزارعين والرعاة والصيادين. تتحدّد الاتجاهات لديهم إما بواسطة الاستدلالات الفلكية استناداً إلى شروق الشمس وغروبها، أو بواسطة الاستدلالات الجغرافية: اتجاه البحر، واتجاه الغابات التي تتحدّد أحياناً تبعاً لجاري المياه (مهبط النهر أو عاليته). وعند الفانغز (Fangs) في الغابون وجنوب الكاميرون، فاتجاه الزمان والمكان يُرد إلى حركة الشمس الظاهرة. «الزمان والمكان يجريان من الشرق إلى الغرب، وفقاً لحركة هابطة. الشرق هو أوكو (Oku) (صاعد، سام، مذكّر)، الغرب هو نكيه (nké) (هابط، منخفض، مؤنث). وبالنسبة لمحور الإسناد شرق - غرب، فالشمال يقع إلى اليمين (الجهة الذكر، mbo, nnom) والجنوب إلى اليسار (الجهة الأنثى، mbo ngal). أما الحدود بين الشمال والجنوب فهي أوزيوننغا (Osoe nnanga). نهر اللابينوس (Olbinos)، والتي هي أيضاً القوس قزح. وهكذا نتوصّل إلى تحديد وجهتين متضادتين في دوّارة الرياح: رُبْعَة الشمال والشرق (N. et E.) مذكّرة. ورُبْعَة الجنوب والغرب (S. et O.) مؤنّثة. وما تبقى يبدو نكرة. فالقطر شمال - شرق، جنوب - غرب يشكّل منصفاً لزاويتين متعارضتين يُعطي وجهة الزوج مفاعامان (mfa'a man نحو البحر... وفي البيلابا (le bilaba) (نوع من مهرجان ديني عند هنود أميركا الحمر، تتبادل فيه الهدايا) تأتي البضائع الذكوربة من القطاع الأنثوي والعكس بالعكس... وكانت هذه التناقضات تُحلّ باعتماد مبدأ التآكل المضاعف أو التكاملية الجنسية»^(١٧).

إلا أنه حينما كان، فالعامل العاطفي يختلط بالادراك الحسي للمكان. فحيناً «تقرأ» بقعة تبعاً لتقلّات سلف، وأحياناً يُصوّر مشهدٌ جسماً ممتداً لبعض أنصاف الآلهة، وأحياناً أخرى يُظنّ أن الأشجار والصخور والنباتات والتلال مخبأً للعفاريت. هناك إذن شرحٌ أساسيٌ يلاحظ بين المكان المؤنسن، قرى أو حقول، والمكان الطبيعي

رائز القرية المستخدم في علم النفس الأوروبي بتقريب
مقارن .

لقد كانت مملكة يوروبا القديمة مقدسة، تجمع السلطات
الدينية والسلطات المدنية: وكان موقعها المركزي منطقياً .
إن المدن التي أسسها الغزاة البيل (Peuls) في شمال
الكاميرون أو النيجر، تشهد بدورها أيضاً على تأسيس
الحياة الاجتماعية . وقصر لاميدو المقدس في الوسط، إلا أنه
لم يكن وحيداً . فالمسجد الرئيسي والسوق كانا هناك،
للدلالة على أن سلطة الحاكم إنما أوكلت إليه من أجل خير
جماعة المؤمنين . وبالطبع، فزعيم البيل حكم بسلطة
مطلقة، لكن، لمن يعرف الغوص بعيداً عن الظاهر،
فالطقوس والأنظمة العامة تذكر بأنه، في الحقيقة، سليل
أحد الغزاة الاقطاعيين، كان تسلم « راية » المبشر المسلم
العثماني دان فوديو (Fodio) في مهمة وضع قطاع بلد
وثني تحت راية الاسلام، وهناك، اقتطع لنفسه مملكة .

فالمواقعية*) المدنية، تكشف، كذلك، المشاعر التي
تحرك المدنيين . إذا كانت الصروح أو الشوارع تقدم
رموزاً مكانية، فالأحياء تقدم رموزاً لفظية . ويجب، من
حيث المبدأ، أن تقوم التعارض « مدينة - قرية » القائم غالباً
عند البيض أكثر منه عند السود: فكلمة مدينة تعني الوسط
والأحياء الغنية، وقرية تنطبق على الأحياء الأفريقية، في
حين أن ضخامة السكان في هذه الأحياء ترفض وبسخرة
أية تسمية من هذا القبيل . فالاستعمال الأكثر تداولاً لكلمة
« خشبة »، أو لكلمة « المرسى » في السنغال خارج كل ميناء
نهرى أو جوي .

ويمكن أن يدل اسم بعض المدن الشهيرة على حيٍّ من
الأحياء . كحي ليرثيل في « لندن »، و« باريس الصغيرة »
في « باتافيا » . ويشير وجود حي « كيازي » إلى انتشار
ثقافة اشنتي (ashanti) في أبيدجان .

وفي الكاميرون، كثيرة هي المدن، التي على غرار دوالا

(Ogun) إلى يميني ... وستسمى المدينة ايف (Ife) ...
سنة عشر إلهاً جاءوا معي وسيكون لهم أولاد
يعيشون معكم ... » ويضيف فروبينيوس: « يبدو
جلياً، أن الرابطة المشهورة، في وسط
إيف، كانت قديماً عين العالم وفقاً لمفهوم يوروبا
(Yoruba) . وايف، قديماً، كانت تتألف من سبعة عشر
حياً، واحد مركزي، وأربعة للجهات الأصلية ... »،
وتمحورت مدينة يوروبا القديمة حول قصر الملك .
« المخطط التقليدي، يعطي لقصر الأوبا (I'Oba) شكل
عجلة، بمثابة ثقب: الجدران إطار العجلة، والشوارع
تشكل شعاعاتها . تنطلق من القصر، وتربط المدينة
بالخواصر الأخرى ... يحتل القصر المركزي، المحاط
بالجدران، مساحة واسعة: من ١ إلى ٨٪ في مدينة
انتراموروس (intramuros) »^(١٧) .

وتقدم أبوكوتا (Abeo Kuta) أو ايبادان
(Ibadan) مخططاً أكثر تعقيداً، مع شبكة من المنعطفات
يرتبط الواحد بالآخر إلى هذا الحد أو ذاك . وكل منها
يتألف من أرض مسورة على جانب من الأهمية، وسوق .
ويعيد التاريخ الاعتبار الكامل لهذا التنظيم . ففي القرن
الثامن عشر، إبان اجتياح البيل (Peul) . وجدت مختلف
القبائل - التي تنتمي لسلالة يوروبا - ملاذاً بالقرب من تلة
ايبادان أو من صخرة أبوكوتا . واستقرت الواحدة منها
جنب الأخرى في تلك الأماكن، بعيدة عن سور المدينة
العام . كل قبيلة بقيت متجمعة بالقرب من قصر رئيسها .
مانحة في الوقت ذاته، هذا المظهر الكوكبي للمدن، الذي
يعبر عن تكوينها التآلفي . وهناك هيكل خاص يعود إلى
الجماعة المدنية، بينا كان لكل نسب هيكل خاص به .

سيكون عملاً ممتعاً، البحث في الرموز التي تعكسها
المدينة، والمعنى الذي يمكن لهذه الرموز، بوعي أو بدونه،
أن تكتسبه، في ذهن أولئك الذين يسكنونها . وسيسمح

(Douala)، لها حي «نيوبيل» (New Bell). ففي هذه الحال، لا يكون التأكيد على القرابة (Parrainage) المميّزة وإنما على تماثل الأدوار: فأحياء «نيوبيل» هي أحياء جد مختلطة، تحتك فيها جميع الأعراف. وهناك مدن كثيرة، تضم أحياء يتم اسمها عن عرق ما. فإما أن يكون المنتسبون إلى هذا العرق هم، حقيقةً، أكثرية الحي، أو أن يُسند اسم الحي احتراماً لبعض غلبة القوم الذين أقاموا فيه. في الكاميرون، يكون لأسماء أحياء «موكولو» منطلقٌ مختلف تماماً. ففي موكولو، مدينة الشمال، كان قد أنشئ السجن الذي أودع فيه، المحكومون لمدد طويلة. وكان الجنوبيون يحكمون على مناخ موكولو الحار بشكل مخيف. إلى ذلك، فهل يوحي اسم الحي هذا بمكان تصعب الحياة فيه.

كل هذه القائمة من الأسماء تُظهر اعتزاز السكان، منذ «الحي الطريف» في البوانت - نوار (Pointe-Noire)، أو «الأكيبه قبنيه قوار» (Akebé Vener Voir) في ليرفيل، إلى الـ «Asikafo Ammanten» (الأغنياء يصلون متأخرين)، «Apembrom d'allée» (حيث يعيش أولئك الذين يُعدون بالألوف)، (٥٠٠٠ كتاب على الأقل)، قَدّمت من أبوه (Abboh) إلى جنوب غانا. وآخرون يتوقون نحو التطور، كما في كوتونو (Cotonou) «Evenoumédé» (إذا كنتم تحبونني، تعالوا معي). «Misebo» (اقتربوا). «Awanbo» (هم، المهندسون، لبأثوا جيعاً). ويشير الاسم أحياناً إلى انتهاء ديني إسلامي، كذلك الكم الذي لا يحصى لإسم «مدينة»، «دار السلام»، «ميرزديه» (مسجد) أو «ميربرا»، «حدالله». وكذلك، فالأسماء المسيحية هي أيضاً مميزة: ففي غانا، أسماء «سلام»، «كريستوم»، «بروني كروم» (مدينة البيض). وفي بانغي، «فاطما» أو «نوتردام أفريقيا» التي هي أسماء الكنائس الخوريّنة.

إن نموذج «بيكين» (Pikine)، المدينة التابعة في

داكار، هو من الأهمية بمكان، لأننا نجد فيه كل التنظيمات الواقعية. هناك عدد من الأسماء وصفي، مثل: «سرطان» (Crabes) (نظراً لكثرة سراطين الأرض فيها)، و«غي واي» (Gueye Waye) (البحر يغني، نسمع فيه ارتداد الأمواج)، و«Wakh Kenan» (احفر، اشرب)، حيث مستوى المياه الجوفية قريب جداً. كما أن هناك أسماء أخرى تاريخية ترتبط بالسكان الأول، مثل: «غوي فاتو مايغا» (Gouy Fatou Maïga) (بأأوياب الفاتو مايغا)، و«كوريناغ» (Korinag) (بركة السموات Maures). وانتقلت الأسماء مع السكان: فبعد هدم أكواخ الصفائح الداكارية، وتحوّل سكانها إلى بيكين (Pikine)، نعر هناك من جديد على أسماء الأحياء الداكارية: «فم مجفّف» (Gueule Tapée) (خليج ليزار يعني فم مجفّف)، «نيا مزات» (Niamzat)، «كولوبان» (Colobane)، «واغو نيايس» (Ouagou Niayes) ...

وأحياء أخرى، صيغت أسماؤها من اسم زعيمها. فباماكو (Bamako) يعطينا المثال الأفضل في هذا المجال، ذلك أن ثلاثة من الأحياء تحمل أيضاً أسماء ثلاثة رجال كانوا قد أسسوا المدينة لثلاثة قرون خلت. إنه لمن الأهمية الأكيدة معرفة هذه العلامة [دراسة الأعلام]، لأنها تسمح لنا بالكشف، تقريباً وبشكل أكيد عن السكان الأصليين، أصحاب الأرض الحقيقيين. فإذا سميت أحياء في ياونديه (Yaoundé) بـ «مفوغ آدا» (Mvog ada) أو «مفوغ مبي» (Mvog Mbi) فلأنها مكان إقامة قبائل «آدا» أو «مبي»، بينما تعني «إلغ بيليبي» (Elig Belibi) أرض بيليبي المستريحة.

وللمدينة، بالإضافة إلى طريقة إنشائها، ووظائفها المادية، قيمة رمزية. فالمرقب، المهتم باستجلاء الحقيقة، يشدّد على مسألة توافق المدينة مع الأدوار التي تلعبها في المنظمات الدولية، في التجارة، في الطقوس الدينية، والتسلّيات أو في المواصلات. إننا نشدّد على التعارض بين

الوسط والأحياء. ونراقب السلطات المدنية. لكننا نختار أمام لغة المدينة.

بالنسبة للسكن، فالمسألة واضحة: يعبر المالك عن نفسه، من خلال منزله بالقدر الذي يتوافق هذا المنزل مع أهوائه. وإلاّ «فالثقافة السائدة» هي التي تعبّر عنه. في المدينة، تتدخل وجوه مختلفة، في الحاضر ومن خلال التاريخ، مهما يكن ذلك موجزاً.

وعلى الحارطة، نفهم حركة التطور، ونلاحظ انتقال السلطة المستعمرة إلى السلطة الوطنية. وغالباً، نقرأ تحولات الوسط التقني: كذا إنشاءات فندقية ظهرت بمحاذاة المرفأ، ثم انتقلت باتجاه المطار، كذا منطقة تجارية أقامتها قوافل حلالين، ثم تحولت وتركزت بالقرب من سكة الحديد، ويمكن أن نجد لها مكاناً جديداً قرب طريق تنشط حركة السير عليه. لنحاول إذن، أن نتبين الدلالات التي من الممكن أن تحضر في ذهن المراقب. فالتفريق بين وسط المدينة والأحياء فيما بينها، هو السمة الأولى. يملكنا إحساس بقطع ما، بفقدان توازن بين مختلف مظاهر الحياة. فمدينة الدولة وإداراتها مغايرة للمدينة الاقتصادية، ولمدينة العبادة. هناك، على الأرجح، رمز لقلق رهيب، تحصن الغري، بمواجهته، بعبادة أصيلة، لكنه يجازف بسوط الأفريقي الذي عاش في عالم موحد بانسجام. إن بُعد السلطات، سياسية أو إدارية، هو، غالباً، ما يستحق الذكر. ويظهر بوضوح وضع ساكن المدينة. ففي القرية، هناك دائماً سلطة: سلطة الأب أو البطرسيرك. وفي المقاطعات أو في المدن الصغيرة سلطة الزعيم أو موظفي الحكومة معروفة من الجميع. أما في المدينة، فالشخصيات المسؤولة هي غالباً غير معروفة. وحده رئيس الدولة، يتمتع باعتبار يعززه القصر الرئاسي المشاد عموماً بشكل مركزي ومميز. العمدات ومفوضو الشرطة يستطيعون تجسيد السلطة على مستوى الأحياء. وفي الواقع، يبقى زعيم الحي رمزاً شعبياً، ومساهماً أيضاً في إعادة بناء نوع من قرية

في قلب المدينة. إن لهذا البعد للسلطات نتيجة بمنتهى الخطورة، فالمواطن يخاطر في عدم إقامة الصلة بين السلطة والمسؤولية والعمل.

ولدى رجل الشارع إحساس بكل الفخفة التي تحيط بالحياة العامة. ففي عدد من الدول، تبقى التظاهرات، والمواكب لها المنظمون من قبل الحزب، متواصلة. إضافة إلى ذلك، ففي كل مكان، هناك لقاءات قمة - مؤتمرات عالمية، زيارات رئاسية - كثيرة جداً.

ليست الوسائل الحماسية تخطيطات عظيمة وحسب، إنها مألوفة التداول. فتشكيلة الأعلام الملوحة في الهواء تحت تقريباً حيزاً من المنظر اليومي لوسط المدينة، للمطار، وللشوارع التي يفضي واحدها للآخر.

وإذا بحثنا في ما تقوله المدينة في الحقل الاقتصادي، لرأينا فكرة الفخفة هذه في أجلى صورها، معزولة عن مجالي النشاط والفعالية. والمدينة تعطي، وبشكل كلي، الانطباع بقدره مادية كبرى. في حين أن المشاريع لم تكن لتعرض فيها. والمدنيون، الذين لا يعرفون المحلات التجارية من داخلها، لا يستطيعون أبداً تقدير طبيعة العمل الذي يجري فيها.

في القرية أو في الأحياء التقليدية، نرى الحرفيين يعملون: الحائكون، السكافون أو الخياطون يقيمون في محل أو تحت شرفة. أما في المدينة الحديثة، فالعمل، هو حقيقة خفية، إذ يتم جمع البضائع وتوضيبيها داخل المستودعات أو في أمكنة كبيرة مسورة. وفيما يتعلق بالأعمال الديوانية، فالعامة لا تعرف غير المكان، الذي يمكن أن يظهر فاحراً بالنسبة لأحياء النازحين البائسة. والمصانع القليلة، حاصل الكلام، قلما أنشأت في قلب المدينة. ولم تسم المقاطعة بسيادة الاقتصاد.

إن رخاء المدينة أمر حتمي، لا سيما إذا اعتبرناه من وجهة نظر بكر لانسان الدغل القادم حديثاً، ولا يكمل من

مراقبة السيارات، الأضواء، زحمة المارة، الثراء، والثرء المحدود أحياناً، حيث تكتنظ المحلات. رخاء ليس له تفسير.

ولم يكن الاعلان بالمصقات قد تطوّر كثيراً بعد. فقد وجد الانسان نفسه أقل انشداداً، منه في أوروبا، إلى عالم الأشكال والألوان الذي ترسمه الاعلانات. وإن تدخل المجتمع الاستهلاكي والضغط على الشراء يأتیان بدرجة أقل. ففي عالم الانسان المدني، تلعب الأشياء إذن دوراً من المستوى الأول. بالنسبة للقروي، أية علاقة تنشأ، فهي من شخص لآخر. السلطة تُمارَس من قبل انسان، علاقة التجارة تقيم روابط بين شخصين. وما مقايضة الأشياء، والخدمات أو العملات، إلا مظهرأ، شائعاً في الحقيقة، لهذه العلاقة. فالمزارع بمواجهة حقله لم يكن أمام غرض بسيط: الأرض هي تلك التي لأجداده، وخصوبتها هبة السماء، وهي نفسها أحياناً إله. أما في المدينة، فالأمر عكس ذلك، إذ تأخذ الأشياء قيمة خاصة، مستقلة عن أولئك الذين اصطنعوها...

شبكة الطرقات هي ضرب من شيء صارخ وجديد. وهنا، ليس الثراء هو الذي يتجلى، إنما تملك المكان. ويُدرك الأفارقة هذه السيادة. سيد المكان، هو أيضاً سيد النهار: الشوارع لا تعرف الليل. والطبيعة تخضع لمشيته، والأشجار تصطف على امتداد الأرصفة. إن هذا ليس أبداً

ضرباً من ترهات حاملة على الخارطة. فقد جرى استقصاء في بانغي يؤكد انطباعات جُمعت في مدن مختلفة: بالنسبة لـ (٤٨٤) ولدأ سثلوا في العام (١٩٧١) عن العناصر الأكثر أهمية للمدينة، فأجابوا، وفق التدرج التناقصي بـ: الشوارع (ذُكرت ٢٤٤ مرة)، المدارس (٢١٦)، المحلات (٢٠٠)، الأشجار (١٩٤)، الإضاءة المدنية (١٩٣)، البيوت (١٥٨)، الأسواق (١٥٨)، المستشفى (١٣٧)، شبكة المياه (١٣٠)، سوق بوكاسا بالأشكال المبتكرة (١٢٧)، الحفلات الراقصة (١١٦)، فندق سافاري وطبقاته الأربعة عشر (١١٠)، الملعب (١٠١)، النظافة (١٠٠)، المطار (٩٨)، المصانع (٩٨) (١٨) ..

إنه لمن الصعوبة بمكان معرفة كيف تخطر صورة المكان المدنية في ذهن السكان. أيتبعون عقلياً خطوط الآثار المشخصة أو لديهم رؤية أكثر شمولية للمساحة؟ يمكننا الاعتقاد في أن الأولاد ليس لديهم سوى معرفة محدودة عن مدينتهم البعيدة الأطراف، ويربطون، بطريقة سيئة، حيتهم بالوسط وبالأحياء البعيدة. إن هذا لا يعني شيئاً. فمعرفتهم كلية. لكنهم يقيمون معارضةً بين الحي، القروي الأنيس والريفي، وبين الوسط العصري، مشاراً إليه بروائع مدهشة. كيف نرى في الدراسات الأفريقية أحياناً ظهور معالم الحياة الثنائية، التي هي في الوقت نفسه تقليدية وعصرية، أوروبية وأفريقية.

- الهوامش -

- (١) O. Reclus, La France et ses colonies, t. II: Nos colonies, Hachette, 1889, p. 320.
- (٢) Cité par Mme Désiré-Vuillemin, Les Capitales de L'Ouest africain, Documentation pédagogique, 1963.
- (٣) Ilidio Do Amaral, Luanda, Memorias de junta de Investigações de Ultramar, 1968, Lisbonne, p. 65.
- (٤) Bakari Kamian, «San», Cahiers d'Outre-Mer, No 47.

-
- E. Krapf Askari, *Yoruba Towns and Cities*, Clarendon Press, Oxford, 1969, p. 51 et 49. (5)
- Southall, «Kampala», *Miner City in Modern Africa*, Pall Mall, Londres, 1967. (6)
- Arthur T. Porter, *Creoleland*, Oxford University Press, 1963. (7)
- Ogo, *Yoruba Culture Yoruba Palaces*, 1966, University of London Press, cité par Krapf Askari. (8)
- J. Binet, «Image de la ville», *Bulletin trimestriel du Secrétariat des missions d'urbanisme et d'habitat* No 68, janvier 1972, p. 3-18. (9)
- Galy Kouassi, ministre de la Construction, *Fraternité Matin*, 10 novembre 1969. (10)
- Colloque C.N.R.S., *La Personne en Afrique*, Octobre 1971. (11)
- Eric Polet, Grace Winter, *La Société Soninké Diahunu*, Institut de sociologie, Université libre de Bruxelles, 1971. (12)
- Ducreux, «Croissance urbaine et démographique au Kinshasa»; Verhasset et Van Wettere, «Quelques aspects de l'expansion de Kinshasa», *Colloque sur la croissance urbaine en Afrique et à Madagascar*, édition C.N.R.S., Bordeaux, 1970. (13)
- P. Castelnau, *Le Soudan français*, 1953. (14)
- Alexandre et Binet, *Le Groupe pahouin*, P.U.F., 1958, p. 114. (15)
- J. Binet, *Psychologie économique africaine*, Payot. (16)
- E. Krapf Askari, op. cit., p. 39-42. (17)
- Secrétariat de mission d'urbanisme et d'habitat, *Bulletin trimestriel*, No 68, Janvier 1972. (18)